دور الأستاذ الجامعيّ في تعريب التعليم العالي في الوطن العربيّ

د. هاني مرتضى(*)

تمهيد:

إن لغة أيّ أمة هي عنوان هويتها، ووعاء ثقافتها وحضارتها، ولذلك فإن الأمم تستمر وتتطور ما دامت محافظة على لغتها متمسكة بها، حريصة على تطورها ومواكبتها لما يجري في العالم من تطور حضاريّ متسارع. ولذلك أيضاً نجد أن لغات بعض الأمم تُستهدَف، لإضعافها وإماتتها، حتى يسهل على الآخرين السيطرة على مقدرات تلك الأمم بعد أن تفقد هويتها، ولا سيما في هذا الزمن الذي انحسر فيه الاستعمار العسكريّ المباشر ليحل محله استعمار بوجوه جديدة.

ومما هو معروف لدى أهل الاختصاص أن لكل لغة خصائص وقوانين تميزها من غيرها، وتكسبها شخصيتها، وكلما كانت خصائص هذه اللغة مرنة أكسبتها القدرة على البقاء والدوام، والتعبير عن مستجدات الحضارة الإنسانية، والتأثير في باقي اللغات والتأثر بها.

وتأتي اللغة العربية في مقدمة اللغات الحضارية العالمية، لما يتميز به نظامها الصوتيّ،والنحويّ، والصرفيّ، والدلاليّ، من خصائص تجلعها على رأس اللغات الحية، ويضاف إلى ذلك كله أن خصَّها الله بمزية أخرى؛ إذ جعلها لغة القرآن الكريم الذي أنزله (بلسان عربيّ مبين) للناس كافة، فهي لغة آخر كتاب سماويّ يدعو الناس إلى الإيمان بالله، كما تعهد الله بحفظ هذا الكتاب بقوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وهذا يؤدي بالضرورة إلى حفظ اللغة العربية، لغة كتابه العزيز.

ويشهد تاريخ اللغة العربية أنها كانت الأقدرَ على الحياة والاستمرار، والتأثير في اللغات الأخرى، ومسايرة التطور الحضاريّ.

فقد كانت اللغة العربية لغة قبائل متنقلة في الجزيرة العربية، تعبّر عن حياتهم البسيطة، ومجتمعهم البسيط، ولمـّا جاء الإسلام بدعوته العالمية كانت هذه اللغة أداته للدعوة، وبرزت للوجود دولة عربية موحدة تحمل دعوة جديدة وحضارة جديدة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً من أمم مختلفة وألسنة متعددة، وانصهرت حضارات كثيرة في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية الجديدة، وكانت اللغة العربية وسيلة التعبير الوحيدة عن كل ذلك، وانتشرت الحضارة العربية الإسلامية، وامتدت رقعة هذه الدولة الجديدة من أواسط الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً، ومن بخارى وطشقند وسمرقند شمالاً إلى أواسط إفريقيا جنوباً،

(*) رئيس جامعة دمشق

وصارت الحضارة العربية الإسلامية الحضارة الأولى في العالم، وكانت اللغة العربية هي وسيلة التعبير الوحيدة عن هذه الحضارة وما رافقها من تطور،واقتدرت هذه اللغة على التعبير عن كل جديد دون أن يظهر فيها ضعف أو وهن. فكانت اللغة العربية لغة الحضارة العالمية لقرون كثيرة.

ولم تستطع النكبات التي أصابت الأمة أن تنال من هذه اللغة أو تضعفها، فعلى الرغم من السيطرة السياسية للحكام من غير العرب على مقدرات الأمة قروناً طويلة متعاقبة، ظلت اللغة العربية متماسكة مؤثرة قوية، ولما تفككت الخلافة العربية الإسلامية إلى قوميات، استقل الوطن العربيّ بلغته، واحتفظت بعض القوميات بالحرف العربيّ للكتابة والتعبير؛ كالذي نراه اليوم في اللغة الفارسية، والأوردية.

ورافق انحدار الحضارة العربية الإسلامية في القرون الأخيرة، وتفتتها إلى دويلات ضعيفة مستضعفة، تقدُّمٌ حضاريّ جديد عند أمم أخرى، بدأت تأخذ مكانتها المرموقة في الحضارة الإنسانية، وتحاول فرض حضارتها ولغتها وقيمها على الأمم الأخرى. وشرعت الدول المستضعفة تبحث عن هوية لها، ومكان جديد ضمن المتغيرات الجديدة، ولذلك نشأت مجموعة من القضايا المشكلة، وعلى رأس هذه القضايا مشكلة اللغة وقدرتها على مسايرة التطور الحضاريّ الجديد.

و "إن كبرى المشكلات المثارة في العالم العربيّ، والتي تعود إليها سائر المشكلات في ميدان اللغة هي مشكلة نهوض اللغة العربية وقدرتها على الوفاء بحاجات أهلها في هذه الحياة الجديدة سواء في ميدان العلوم أو الفن أو الأدب، بأغراضه وآفاقه الحديثة، أو في ميدان الحياة العملية، بما فيها من مستحدثات لا ينقطع سبيلها" [1].

ولذلك كثرت الآراء والدراسات التي تناولت هذه المشكلة في جوانبها المختلفة، ومنها مشكلة تعريب التعليم في الوطن العربيّ، إذ كثرت التساؤلات حول مقدرة اللغة العربية على أن تكون لغة التعليم، والتعليم العالي خاصة، وقدرتها على أن تكون لغة المؤلفات العلمية، وأن تكون قادرة على مواكبة التطور العلميّ المعاصر المتسارع بصورة مذهلة.

وسيحاول هذا البحث تناول جزئية من هذه المشكلة، وهي (دور الأستاذ الجامعيّ في تعريب التعليم العالي في الوطن العربيّ، ودراستها بما يخدم اللغة من خلال الواقع اللغويّ، والعمليّ والواقعيّ).

مشكلة التعريب:

إن ظاهرة التعريب والنقل إلى العربية لم تكن مشكلة قبل القرنين الأخيرين، وربما قبل القرن العشرين فقط !

ويمكننا أن نُرجع أسباب هذه المشكلة إلى مجموعة من الأمور، أبرزُها:

1- التراجع العلميّ لأقطار الوطن العربيّ بشكل عام. وهنا لا بد لنا من التمييز بين استخدام مستجدات العلوم والتقانة، وبين إبداعها وإنتاجها.

2- يقابله تطورٌ سريع مذهل للعلوم عند بعض الأمم الأخرى، عجزت الدول العربية عن مواكبته، بل عن الاقتراب منه.

3- استهداف اللغة العربية من قبل أعدائنا إمعاناً في إضعافها، لإضعاف الأمة وتفتيتها، وعند ذلك

تسهل السيطرة على الوطن العربيّ؛ لجعله تابعاً وسوقاً استثمارية جيدة في الوقت الراهن.

وقد تنبه على هذه المسألة كثير من المخلصين، يقول أحدهم في معرض حديثه عن محاولات إلغاء العربية من التدريس في الجامعات العربية: " بل وكادت يد التفرنج تمتد بالسوء إلى إحدى قلاع التعريب الجامعيّ، أعني جامعة حلب، من خلال تقرير الخبراء الأجانب الذي أوصى، بإجماع الآراء، بضرورة تعليم الطب في جامعة حلب باللغة الإنجليزية، ويرى بوضوح أن وراء هذه التوصية نية مبيتة لغزو عاصمة بني حمدان، والغريب أن مقوماتنا الأولى من لغة وتربية وما إلى ذلك هي التي نجعلها محل استشارة، واستشارة أجنبية بالخصوص، في حين أن الشعوب التي تريد أن تبني كيانها على أساس من ماضيها وحضارتها تخطط لنفسها وتستعين بالأجانب على التنفيذ [2].

4- ضعف الغيرة على اللغة العربية عند بعض المثقفين العرب، ولا سيما عند بعض من تعلقوا بالثقافات الأخرى بسبب أو بآخر، مما زهّدهم في لغتهم وحضارتهم، وجعل قلوبهم تتعلق بتقليد الدول المتقدمة، وعيونهم تبهر ببهارجها، وهذا ما حمل ضمناً شيئاً من الازدراء بلغتنا وثقافتنا وحضارتنا.

5- ضعف المعرفة باللغة العربية —وربما انعدامها أحياناً— عند بعض المتعلمين، ولا سيما عند غير المختصين، مما جعل فجوة بين معرفتهم باللغات الأخرى، ومقدرتهم على التعبير عنها بلغتهم العربية، وهذا ما حملهم على التوهم أن اللغة العربية قاصرة عن التعبير ومسايرة التقدم العلميّ الجديد.

6- عجز أهل الاختصاص والمعرفة الصحيحة والغيرة — أو تعجيزُهم بوسائل شتى — عن اتخاذ الإجراءات التنفيذية اللازمة لحل المشكلة، وبيان الحقيقة، والارتقاء باللغة العربية لتكون لغة الحديث والتعليم.

7- إهمال الأنظمة السياسية لهذه المشكلة، والتكاسل عن اتخاذ القرارات الحاسمة والضرورية التي تحمي اللغة العربية، أو الأخذ بالتوصيات التي تصدر عن مجامع اللغة العربية، أو الندوات العلمية المختصة، أو الجهات العلمية المعنية بذلك، وتنفيذها.

هذه أبرز الأسباب التي جعلت من تعريب التعليم والعلوم مشكلة كبيرة، تكاد تصبح مزمنة، وربما تسير في طريق غير صحيح إذا نحن أهملنا معالجتها، وبقينا على ما نحن عليه من تواكل وتباطؤ في اتخاذ الحلول العلمية الصحيحة وتنفيذها.

مفهوم التعريب:

إن ظاهرة التأثير والتأثر والتبادل بين اللغات معروفة لدى الدارسين والباحثين، وهي قديمة قدم التقاء المجتمعات واختلاط أهل اللغات المختلفة. "فالاقتراض اللغويّ ظاهرة عامة بين اللغات، وارتحال الكلم فيما بينها واحدة من المسلمات، وهو من آثار التقاء الحضارات والثقافات. وإذا كان النقاء العرقيّ اليوم متعذراً، فإن النقاء اللغويّ أكثر تعذراً" [3].

وقد كان لمصطلح (التعريب) في تاريخ الثقافة العربية ثلاث دلالات مختلفة باختلاف الأزمان، وهي:

1- عند القدماء حتى عصر النهضة: كان مصطلح (التعريب) يعني بيان الكلمات المستعملة في

اللغة العربية ذات الأصول الأعجمية، أو نقل بعض الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية وفق الشروط المحددة لذلك، وقد أُلّف في ذلك عدد من المؤلفات أشهرها كتاب (المعرَّب من الكلام الأعجميّ) للجواليقي، ويلاحظ في هذه الفترة أنهم ربما قرنوا بين (المعرَّب) و (الدخيل) على أنهما مصطلح واحد. [4].

2- في عصر النهضة (الجيل الماضي): كان مصطلح (التعريب) يعني (الترجمة)؛ أي أن يقوم الباحث بترجمة كتاب ما إلى لغته، ولذلك نجد على بعض الكتب المترجمة عبارة: (تعريب فلان) أو (عرّبه فلان).

3- في الزمن الحاضر: التعريب يعني استعمال اللغة العربية تدريساً وتأليفاً، في جميع مراحل التدريس، ومنها التعليم العالي، وفي جميع الاختصاصات، ومنها الاختصاصات العلمية.

ولما كانت مشكلة التعريب من المشكلات المعاصرة فإن البحث يتناولها بمفهومها الثالث، وهو تعريب التعليم تدريساً وتأليفاً.

لمحة تاريخية عن تعريب التعليم في الوطن العربيّ:

يحسن بنا أن نشير إلى لمحة تاريخية عن تعريب التعليم في الوطن العربيّ، لما لذلك من دلالة حول إمكانية تطبيق هذا الأمر ونجاحه.

ولعل أول محاولات التعريب كانت في المدرسة الطبية التي أنشأها محمد علي باشا عام 1827م في أبي زعبل، واستقدم إليها أطباء من فرنسا وإيطاليا؛ يلقون محاضراتهم؛ وتُترجم هذه المحاضرات فوراً. [5]. (انظر مبارك 64 وما بعدها) "ولم تمض عشرون سنة حتى كان الطب في مصر عربياً بلغته، وبلغ مجموع الكتب الطبية المؤلفة بالعربية 73 كتاباً" [5]، واستمرت حركة الترجمة لتشمل معظم العلوم الأخرى.

واستمر التدريس بالعربية في مصر، وكذلك في لبنان (في الكلية الإنجيلية- الجامعة الأمريكية فيما بعد) حتى دخول المستعمر الأجنبيّ، فتحول التدريس فيهما إلى الإنجليزية).

أما في بلاد الشام فتعود محاولات التعريب إلى أوائل القرن التاسع عشر، على الرغم من أن لغة التعليم بشكل عام كانت اللغة التركية حتى عام 1909م، مع وجود بعض المدارس الخاصة التي تدرس بالعربية.

ولما أنشئ المعهد الطبيّ العربيّ في دمشق عام 1919م (كلية الطب فيما بعد) كان التدريس فيه باللغة العربية، وما زال كذلك إلى يوم الناس هذا. وقام على التدريس والتأليف والترجمة مجموعة من الأساتذة الرواد المخلصين للغتهم وأمتهم، واستمرت الأجيال تتوارث هذا الأمر ببساطة إلى يوم الناس هذا. [6]

ويمكن أن نشير هنا إلى أهم المؤتمرات والندوات التي قامت حول التعريب:

- ففي عام 1938 م أصدر مؤتمر اتحاد الأطباء العرب قرارات بتوحيد مصطلحات الطب.

- وفي عام 1946م وقع وزراء التربية العرب في الكويت اتفاقية تنص على ضرورة التدريس بالعربية.

- وفي عام 1952م أوصى مؤتمر منظمة الأغذية والزراعة(الفاو) الذي عقد في عمّان بترجمة المصطلحات الحراجية.

-وفي عام 1961م عقد المؤتمر الأول للتعريب في الرباط.

- وعقد مؤتمر توحيد المصطلحات العلمية في الجزائر عام 1964م.

- وفي عام 1966م تشكلت لجنة المصطلحات الطبية العربية، وصدر عنها الجزء الأول من المعجم الطبيّ الموحد عام 1973م.

- وصدرت توصية عن المؤتمر الثقافيّ العربيّ الثامن الذي عقد في القاهرة عام 1969م باستعمال اللغة العربية في التعليم والتأليف.

- وفي عام 1973م عقد المؤتمر الثاني للتعريب في الجزائر، وكان فيه إصرار على البدء في التعريب تدريساً وتأليفاً مباشرة.

- وأكدت مؤتمرات التعريب، ضرورة استعمال اللغة العربية وتعريب التعليم.

- وفي عام 1997م، أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثالثة والستين توصية بتعريب التعليم "حتى لا تبقى جامعات الأمة العربية الجامعات الوحيدة في العالم التي تدرس العلوم بلغة أجنبية" (7).

دور الأستاذ الجامعيّ في تعريب التعليم العالي:

مما لاشك فيه أن للأستاذ الجامعيّ أهمية كبرى في مسألة تعريب التعليم، لأنه ركنها الأساسيّ الفاعل والمنفذ لها، فبقدر ما يكون مؤهلاً لها تتم العملية بنجاح، ويكون تطبيقها الصحيح.

ومن البديهي أن العملية التعليمية تقوم على ثلاثة عناصر أساسية:

الأستاذ – والطالب – والكتاب:

أ- الطالب: هو الجهة المنفعلة في العملية التعليمية، وهو المتلقي لما يُلقى عليه، أو يُملى، وهو قارئ الكتاب المقرَّر.

وحتى يكون التعليم نافعاً ومجدياً، ويكون الطالب أكثر استيعاباً ومقدرة على الفهم، فإن اللغة المستعملة في التعليم يجب أن تكون لغته التي يعرفها ويألفها، ويفكر بها.

والتعليم بغير اللغة القومية مخالف تماماً لأصول التربية والتعليم، لأننا بذلك نقيم حاجزاً بين الطالب وبين تفكيره بلغته أولاً، ونحرم الطالب الذي لا يتقن لغة أخرى من التعلم، كما أننا بذلك نكون قد أضفنا الرابط الأساسيّ الذي يربط هذا الطالب بوطنه وأمته ولغته القومية، إذ لا بد من أن يساوره شيء من الشك في ضعف هذه اللغة والتقليل من شأنها، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما استعاضت الدولة عنها بلغة أجنبية عنه في وطنه.

وليس أدل على هذه القضية مما يقوم به عدونا الصهيونيّ في كيانه، إذ فرض التعليم بالعبرية في جميع المراحل، حرصاً على توحيد مجتمعه المتفكك أصلاً، وربطه بلغة توحّده، على الرغم من أن العبرية تكاد تكون من اللغات الميتة قبل قيام كيانه المصطنع. ولم يجد أحد صعوبة في ذلك، مع إتقانهم لغات عالمية أخرى في الغالب.

والذي لا ريب فيه أن الطالب أكثر استيعاباً لما يُلقى عليه بلغته القومية، وأكثر إبداعاً بها إذا سارت

العملية التعليمية بشكلها الصحيح، وقام بها أساتذة مؤهلون تأهيلاً علمياً ولغوياً مناسباً.

ب–الكتاب: هو الوسيلة التي يستعين بها الطالب لتنمية معارفه، وتثقيف نفسه، وتثبيت ما يلقى عليه في قاعات الدرس، وكلما كان الكتاب أقرب إلى فهم الطالب وأيسر له في القراءة، أدى ذلك إلى نتائج أفضل، وساعد على كمال التعليم والوصول إلى الغاية المرجوة منه، ومما لاشك فيه، أن الكتاب إذا كان باللغة القومية للطالب كان أكثر تأثيراً في تنمية معارفه وثقافته، وزاد من ارتباطه بوطنه وأمته.

جـ– الأستاذ: هو الأساس في التعليم، وهو الموجه الأول للطالب، والمصدر الأهم في تلقين المعارف والعلوم، لأنه الممارسة التطبيقية للعملية التعليمية، فإذا كان الأستاذ مؤهلاً علمياً ولغوياً، مقتدراً على إيصال المعرفة، استقامت العملية التعليمية، وأدت الغاية المرجوة منها، بغض النظر عن اللغة التي يتحدث بها، أو يؤلف كتبه، ولا علاقة لصعوبة اللغة، أو كونها غير عالمية في هذا الأمر.

فلما كان المدرسون مؤهلين علمياً، مقتدرين على التعبير عن المعارف بلغتهم، لم تكن هناك مشكلة في التدريس باللغة العربية.

ولما قام على تعريب التعليم– تدريساً وتأليفاً – مدرسون من أهل الخبرة العلمية الجيدة، والثقافة اللغوية، والمقدرة على استعمال اللغة بيسر، استطاعوا أن يؤدوا كل العلوم بلغتهم القومية دون الإشارة إلى أيّ صعوبة تعترضهم، فقدماء المعرِّبين في الوطن العربيّ أدوا واجبهم على أتـــم وجه. وكذلك ما قام به أعداؤنا في الكيان الصهيونيّ، على الرغم من قصور لغتهم. ومثل هذا يقال أيضاً في معظم جامعات العالم كالصين، واليابان، وروسيا، وألمانيا وغيرها.

ولعل بعض العرب يثيرون الشبهات حول قصور اللغة العربية في التعبير عن العلوم الحديثة، وأنها لغة ليست عالمية اليوم، وعلينا أن نواكب العلم والحضارة باللغة العالمية المشهورة – وهم في معظمهم– يقصدون اللغة الإنجليزية.

ولا بد من الرد على ذلك وبيان أمور ربما تغيب عن بعض هؤلاء، أو يُغيّبونها عمداً:

1– لا بد من التفريق بين التعليم باللغة العربية، وبين تعريب المصطلحات العلمية، وهذا أمر جد خطير، فإن الدعوة إلى تعريب التعليم لا تعني بالضرورة تعريب كل المصطلحات، فمن الجائز– وهو من قوانين اللغة العربية– الإبقاء على المصطلحات العلمية العالمية، مع الإشارة إلى المرادف العربيّ لها إن وجد، وهذا يعني أن المدرس يلقي محاضرته، أو يؤلف كتابه باللغة العربية، فيكون أقدر على التعبير والإيصال، ويكون الطالب أقدر على التلقي والفهم، مع الاحتفاظ بالمصطلحات العلمية على صورتها المعهودة، ووضع البدائل إلى جانبها إن أمكن.

2– إن اللغات الحضارية العالمية ليست دائمة في كل زمان ومكان، فقد كانت الفارسية واليونانية لغة الحضارة القديمة، ثم سادت اللغة العربية قروناً طويلة، ثم الفرنسية، واليوم تشهد الإنجليزية انتشاراً وشيوعاً في العالم، وما من أحد يستطيع أن يتكهن إلى أيّ زمن تدوم، وما اللغة القادمة بعدها.

ويترتب على هذا الأمر، إذا تابعنا اللغات العالمية، أن نستمر في اللهاث وراء اللغات المتبدلة حضارياً وعلمياً، وأن نبدِّل طرقنا في التدريس والتأليف، وأن نراوح بين لغات مختلفة، وهذا يؤدي إلى تقطع أوصال الأمة أولاً، وإلى انقطاع التواصل بين الأجيال على مر العصور، لأن ما ألف بالعربية سيأتي عليه حين من الدهر يكون غريباً عن أبنائه الذين جروا وراء الإنجليزية مثلا، وربما يأتي زمن آخر تسود فيه اليابانية، وتصبح لغة التعليم والثقافة، فينقطع الناس عما ألفوه بالإنجليزية، وهكذا يصبح تراث الأمة بحاجة إلى الترجمة وملاحقة الأمم الأخرى، وهذا يؤدي إلى فقدان الهوية، وضياع الشخصية، والقبول بالتبعية، وانعدام الطموح نحو العالمية والتأثير بدل التأثر.

3- ليست هناك حتى اليوم لغة حضارية علمية واحدة في العالم: فحضارة الحاسوب والإلكترونيات تقودها اليابان، والتصنيع وما إلى ذلك أمريكا، وطب العيون إسبانيا وروسيا، ولألمانيا وفرنسا تفوق في بعض الجوانب العلمية، فأيّ لغة تعتمد لتكون مجالاً للتعبير عن المعرفة، ووسيلة للتعليم والتأليف؟ !

وهنا لابد من التفريق أيضاً بين لغة التداول العالمية، واللغة العلمية المختصة الدقيقة.

4- إذا افترضنا جدلاً — وكما هو حاصل اليوم في معظم الجامعات العربية- أن اللغة التي يجب أن تستعمل في التعليم هي اللغة الإنجليزية، فإننا سنواجه مشكلة أكبر ليس من اليسير تجاوزها، فنحن سنفرض على جميع المدرسين أن يستخدموا هذه اللغة، ونحن نعلم يقيناً أنهم لا يمتلكون هذه اللغة جميعاً، فكثير من المدرسين تخرَّجوا في جامعات لا تعلم بالإنجليزية، كالذين تخرجوا في فرنسا، أو ألمانيا، أو إيطاليا، أو إسبانيا، أو روسيا، أو رومانيا، أو بلغاريا... وهؤلاء جميعاً لا يتقنون الإنجليزية، فعليهم إذاً أن يتوقفوا عن التدريس، أو أن يعيدوا بناءهم العلميّ من جديد باللغة الإنجليزية، وبذلك يكون هناك إضرار مزدوج بالعلم ومستواه، وعزل كامل للغة القومية عن مسايرة التطور الحضاريّ والعلميّ، وفي هذه الحالة تكون العودة إلى العربية أسهل بكثير من هذا الأمر.

5- عندما نفرض لغة غير اللغة العربية على طلابنا في جامعاتنا فإننا نقيم حاجزاً بينهم وبين لغتهم وثقافتهم، لأن هؤلاء الطلاب لا يمتلكون المقدرة الكافية على الفهم والتعبير باللغة الأجنبية، فتأسيسهم — في الغالب- لا يؤهل إلى هذا المستوى، وبذلك إما أن نرهقهم بما نفرضه عليهم، وإما أن نعوقهم عن الاستمرار في التحصيل العلميّ العالي، وفي الحالتين نكون قد خرجنا عن الجادة الصحيحة في تعميم التعليم العالي ورقي المجتمع، وحُلنا، بشكل أو بآخر، بين الطلاب وبين الإبداع والتفوق، لأن المقدرة على الإبداع والتفوق تكون نسبتها أعلى عندما يكتب الإنسان باللغة التي يفكر بها ويرتبط بها قومياً، لأن استعداده النفسيّ لذلك أقوى وأعظم.

6- لابد من الإشارة إلى أن كثيراً من المدرسين الذين تخرَّجوا في بلدان أجنبية لا يتقنون لغتهم الأم، و لم يكن تأسيسهم اللغويّ كافياً، ولذلك يجدون صعوبة في التعليم باللغة العربية، ويلجؤون إلى اللغة الأجنبية التي أتقنوها وأخلصوا لها.

7- ثمة أمر مهم يجب التنبيه عليه، ذلك أن تعريب التعليم لا يعني أبداً إضعاف اللغات الأجنبية أو

التقليل من شأنها، فتعريب التعليم شيء، وتنمية معارف الطلاب وتوجيههم نحو إتقان لغة أجنبية شيء آخر فهما يقترنان، ولا يتضادان، إلا في حالة فرض اللغة الأجنبية في التعليم.

من ظواهر التعليم العالي: (المعرّب وغير المعرب):

يحسن بنا أن نشير إلى بعض الظواهر ذات الدلالة في تجربة التعليم العالي، ونبدأ بالحديث عن تجربة التعليم المعرَّب.

وتعد جامعات الجمهورية العربية السورية الرائدة في هذا المجال، والمحافظة عليه تدريساً وتأليفاً في جميع الكليات.

فقد بدأ التعليم العالي في الجامعات والمعاهد السورية معرباً، وما زال إلى يوم الناس هذا، ولم تمر هذه التجربة دون معارضين أو منتقدين، فقد كان تعليم النحو العربيّ في العهد العثمانيّ باللغة التركية، وفي العهد الفيصليّ - بعد الحرب العالمية الأولى- وقف المتخرجون من إسطنبول ضد تعريب التعليم في البداية، كحال كثير من خريجي الدول الأجنبية اليوم، ولكن لم يمض عام حتى استوعبوا الأمر، وأدركوا خطره، وانقلبوا إلى دعاة تعريب، مؤمنين بأهميته والمسؤولية المترتبة عليه. وكانوا أصحاب همة عالية، وغيرة شديدة، فانبروا يؤلفون الكتب ويشكلون اللجان لتعريب العلوم، فشكلت لجنة لتعريب المصطلحات العسكرية من العلماء: ياسين باشا الهاشمي، وعبد القادر المبارك، ورشيد بقدونس، ومراد الاختيار، وصدر أول معجم عربيّ للمصطلحات العسكرية.

وكان للشيخ طاهر الجزائريّ أثر في جعل التدريس في المراحل الابتدائية باللغة العربية بعد أن أقنع الوالي مدحت باشا بذلك، وألف الكتب المناسبة لذلك.

ثم توالى العلماء وأصحاب الخبرة بالتأليف والتدريس في الجامعات السورية باللغة العربية، مما أعان على استمرار تجربة التعليم في جميع الكليات، فعلى سبيل المثال هناك:

الدكتور أسعد عربيّ درقاوي، والدكتور بديع الكسم، والدكتور عادل العوا في قسم الفلسفة، والدكتور صلاح يحياوي والدكتور جمال الفرا في الكيمياء، والدكتور مصطفى حداد والدكتور سعيد الحفار في علم النبات، والدكتور مدني الخيمي، والدكتور حسني سبح في الطب، وكان رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق، والدكتور عبد الله عبد الدايم في التربية، والدكتور ميشيل خوري صاحب معجم مصطلحات طب الأسنان، ومصطفى الشهابي صاحب معجم المصطلحات الزراعية، وغيرهم كثر.

إن هؤلاء وأمثالهم أسسوا لتعريب التعليم العالي في سورية، وأعانوا على استمراره، على الرغم من أن معظمهم كانوا قد درسوا في جامعات أجنبية.

وليس ثمة مشكلة في التدريس أو التأليف بالعربية في الجامعات السورية، كما أن خريجي هذه الجامعات الذين أتموا تحصيلهم العالي في جامعات أجنبية لم يجدوا أيّ عقبة في ذلك، بل إنهم كانوا من المبرزين والمتفوقين، ولم يكن لدراستهم الجامعية بالعربية أثر سلبيّ أبداً، كما لم تكن هناك مشكلة في التدريس لدى عودتهم إلى

جامعاتهم، يشهد بذلك كتبهم التي ألفوها في اختصاصاتهم بالعربية، وهي تُدَّرس في كليات الجامعات السورية، ومحاضراتهم المتميزة، ومقدرتهم العالية.

بينما نجد آراء أخرى في التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات العربية، ويرى كثير من الدارسين أن اللغة الأجنبية المستعملة لا تقوم بالواجب المرجو منها، فمثلاً يقول الدكتور محمود مختار:

"إنها لغة مولدة عقيمة، تمتزج فيها لغة محلية عامية بلغة أجنبية ركيكة ضعيفة، وقد انتشرت هذه اللغة –إن جاز أن نسميها لغة– في جميع الكليات العلمية الجامعية في معظم أرجاء الوطن العربيّ" (8).

ويقول آخر: "وقد دأبت في الآونة الأخيرة أن أتابع محاضرات الآخرين – ولا أزعم أنني خير منهم – فأيقنت مدى تدني إتقان المتخصصين منهم باللغة الأجنبية... لأن غالبيتنا في تدريسنا الجامعيّ لا نستعمل اللغة الأجنبية، ولكننا نستعمل هجيناً لغوياً، لا هو بالعربيّ ولا هو بالأجنبيّ، وحتى الذين يتقنون اللغة الأجنبية إتقاناً جيداً يلجؤون إلى تفسير ما يعتقدونه صعباً باللغة العربية" (9).

ومثل هذا يراه الدكتور محمود حافظ إذ يقول: " ويا ليت اللغة التي يتعلم بها الطلاب لغة سليمة، بل هي آخذة في التردي، وزاد الطين بلة تكدّس الطلاب... وعجزهم عن استيعاب المادة العلمية وفهمها وهضمها تماماً بهذه اللغة الأجنبية، ويكفي أن نطلع على أوراق إجاباتهم بكليات العلوم والطب التي أعرفها حق المعرفة، لنرى انحدار المستوى اللغويّ والعلميّ في هذه الأيام، والذي بلغ درجة من الضعف عند الكثير من الطلاب لم يسبق لها مثيل، ومع ذلك نرى عزوفاً عن التدريس باللغة العربية.(10)

يتضح لنا من هذه الآراء وأمثالها المشكلة التي تعاني منها الكليات غير المعرَّبة، والواقع غير المستقيم، ولعل مرد ذلك إلى ضعف اللغة الأجنبية بشكل عام لدى الطلاب العرب في بلدانهم، وإلى ضعف بعض الأساتذة في القدرة على الإيصال بشكل صحيح، أو إدراكهم للمستوى المتدني للطلاب مما يحملهم على التبسيط الذي يصبح فيه التدريس بلغة هجينة بين العامية والفصحى والأجنبية، وعند ذلك ليس لنا أن نقول إن هذه الجامعات تدرّس بلغة أجنبية. فالمدرس في الغالب ليس وفياً للغة الأجنبية التي يدرّس بها، وليس عنده المقدرة على التعبير الدقيق بلغته العربية، فتكون لغته من الضعف بمكان.

الخلاصة والتوصيات

تبين لنا أن تعريب التعليم العالي ليس مشكلة مستعصية على الحل، وأن التعليم بلغة أجنبية ليس الحل الأمثل، و لم يطبق بشكل صحيح، وحمل معه مجموعة من المشكلات التي تستوجب تغييره والعودة إلى اللغة القومية الموحدة، اللغة العربية، لأن المهم أساساً بقاء الأمة. والمحافظة على الأمة أهم من المحافظة على العلم إذا اقتضت الضرورة. وسلفت الإشارة إلى أن عدونا الصهيونيّ الذي هو مجتمع خليط من أشتات العالم فرض لغته الميتة سابقاً وجعلها لغة لكل العلوم والفنون، واستطاع أن ينجح في ذلك، لإيمانه بخطر القضية وضرورتها، لأن اللغة من أهم العناصر الموحدة للأمة والمجتمع.

وليس هناك أمة واعية تدرّس بغير لغتها القومية، ومعروف لدى الجميع أن الاتحاد السوفيتيّ السابق الذي ضم عدداً من الجمهوريات والقوميات، قد ترك لكل جمهورية من جمهورياته أن تدرّس بلغتها – وكان قادراً على فرض اللغة الروسية- لأنه ليس من المعقول إهمال ذلك، كما أنه معروف بالضرورة أن التفوق والإبداع تزداد احتمالاته لدى الأفراد الذين يكتبون ويعبرون باللغة التي يفكرون بها؛ أي لغتهم الأم.

وثابت لدى الجميع أيضاً أن الأستاذ الجامعيّ هو أساس عملية التعريب، وهو العنصر الفاعل فيها، ولذلك فإنه يتحمل المسؤولية كاملة، كما يتحمل الأعباء المترتبة على ذلك، ويجب أن تتضافر الجهود وتتوحد حتى تؤتي أكلها، وإلا فستبقى جهوداً فردية تكاد لا ترى ولا تجدي، ولا تؤثر في حل المشكلة.

ولا بد من الإشارة إلى أن جزءاً لا بأس به من المشكلة عند الأستاذ الجامعيّ مرده إلى عنصر الخوف والرهبة وقلة الثقة بالنفس، ولكن سرعان ما يتبدى للمخلص أن ذلك وهم زائل، وأن الصعوبة مؤقتة يسهل على العزيمة والإرادة تجاوزها، وقد أثبتت التجربة عند السابقين في التعريب صدق هذا القول.

وحتى يستطيع الأستاذ الجامعيّ القيام بواجبه في تعريب التعليم العالي على أتم وجه، فإننا نرى أنه لا بد من تحقيق الأمور التالية:

1- أن يكون مقتنعا بأن التعريب ضرورة وواجب، وأن لا مشكلة في التدريس والتأليف باللغة العربية.

2- أن يخلص في عمله وفي مساعيه نحو تحقيق الغاية المرجوة.

3- أن يدرك أن تعريب التعليم شيء وتعريب المصطلحات شيء آخر، لا تضاد بينهما، ولا يعني التعريب إضعاف اللغة الأجنبية.

4- عليه تنمية معرفته باللغة العربية،من حيث معرفةُ قواعدها ومفرداتها وأساليبها في التعبير، لأن ذلك يعينه على التعبير الدقيق والعبارة السليمة، والترجمة الحقيقية.

5- إقامة دورات تثقيفية إلزامية لأعضاء الهيئة التدريسية، توضع لها برامج محددة تسهم في إغناء معرفتهم وإكسابهم مفردات جديدة ومقدرة على استعمال اللغة العربية، ولذلك يجب أن يقوم على وضع برامج هذه الدورات خبراء مجربون من أهل الدراية العالية. ويجب أن لا نرى في مثل هذه الدورات حيفاً أو انتقاصاً من أقدارهم، لأننا في كثير من الأحيان نلزمهم بأمور، وبالخضوع إلى دورات هي دون هذا الأمر أهمية (كإلزامهم بدورات اللغات، والحاسوب، و...). وعلى عضو هيئة التدريس أن يكون متفرغاً تفرغاً تاماً لهذه الدورات التي لن تستوجب كثيراً من الوقت إذا أحسنا التخطيط لها.

6- توحيد الجهود، على مستوى الجامعات العربية كافة، وتيسير وصول المصطلحات المعربة إلى جميع المختصين، وبسرعة، ويمكن الإفادة في هذا

الجانب من التقدم الحضاريّ والعلميّ ووسائله التي أصبحت متيسرة.

وعلينا، في النتيجة، أن نتبنى التعريب تدريساً وتأليفاً، ولا بد لذلك من قرار حاسم وتصميم أكيد، فإن لم يصدر هذا القرار من أساتذة الجامعة، فلا بد من صدوره من السياسيين، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وتجربة الجزائر في تعريب مؤسسات الدولة في زمن هواري بومدين خير شاهد على إمكانية تطبيق التعريب بقرار سياسيّ.

الحواشي

1- فقه اللغة: 227

2- منهجية التعريب لدى المحدثين: 148-149، وانظر مجلة مجمع القاهرة ج/56/ص 189، لغة العلوم في التدريس الجامعيّ- لعبد الله كنون)

3- منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث: 5.

4- ينظر كتاب أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: 34

5- اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلميّ: 67

6- مجلة مجمع اللغة العربية/ دمشق : 229/2/2

7- اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلميّ: 102

8- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: 163/56

9- منهجية التعريب لدى المحدثين: 150

10- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: 163/56

المراجع

- أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: مسعود بوبو – وزارة الثقافة – دمشق
- التعريب مؤسساته ووسائله: ممدوح خسارة – مؤسسة الرسالة – بيروت – 1420-1999.
- التعريب والتنمية اللغوية: ممدوح خسارة – الأهالي – دمشق-1994.
- فقه اللغة وخصائص العربية: محمد المبارك -دار الفكر- بيروت – 1395-1975.
- اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلميّ: مازن المبارك – دار النفائس – بيروت – 1418-1998- ط- سادسة.
- منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث: ممدوح خسارة- مؤسسة الرسالة -بيروت - 1420-1999.
- منهجية التعريب لدى المحدثين: ممدوح خسارة-رسالة جامعية – جامعة دمشق.

المجـــلات

- مجلة مجمع اللغة العربية : دمشق
- مجلة مجمع اللغة العربية : القاهرة